المخطوط الإسلامي في خزائن مكتبة برلين

من

كيف انتقلت كنوز الحضارة الإسلامية إلى دول الغرب ؟

ومن خلال زيارتنا لمكتبة برلين ـ أو مكتبة الدولة الألمانية (الاسم الرسمي) ـ في مقرها الجديد بالقسم الغربي من مدينة برلين حيث توجد تسعة آلاف مخطوطة عربية .. و ٢٥٠٠ مخطوطة فارسية ، و ٣٥٠٠ تركية ، و ٦٠ أوردية أيضاً ...

يمكن أن تطرح عدة قضايا حول هذا المورث الفكري والثقافي ـ في المراحل التاريخية المختلفة ، وأهميته في عملية التواصل الحضاري والثقافي للأمة الإسلامية ودوره في إمكانية إعادة صياغة العقل الإسلامي المعاصر .. لكن ، تبقى قضية هامة .. هي : **كيف انتقلت كنوز الحضارة الإسلامية ـ التي انتجتها ونمّتها وتوارثتها الأمة عبر تاريخها الطويل ـ إلى دول الغرب بهذا الكم الكثيف وفي فترات تاريخية معينة ..**

وكيف يتم اختيار نوعيات معينة منها للنشر ، بعد ان تخضع للدراسة والبحث والفهرسة والتحقيق والمقارنة والحفظ من آفات الزمان ، بتطبيق أحدث وسائل الحفظ والصيانة ..

مع أن العلم لايحدّ من انتشاره حدود جغرافية ، إلا أن ماينطبق على المؤلفات المطبوعة والمنشورة قد لاينطبق على المخطوطات التي ظلت في حوزة أهلها على طول التاريخ .. حتى وإن تأخر انتفاعهم بها بحكم ظروف طارئة .. ولكن قيام الغرب باستلاب المخطوطات العربية التي تمثل في معظمها ، الرصيد الثقافي والحضاري للأمة الإسلامية عبر الأجيال ، يكون قد جرى بالفعل حرمان الأمة من حقها في الانتفاع بماتراه مفيداً من هذا الرصيد ، بهدف إحداث الانفصام الذي يزيد من اغتراب المسلمين المعاصرين عن ماضيهم .. وقد يكون مصطلح « **الإحياء** » الذي ارتبط بالتراث ، أكثر ملاءمة للأمة الإسلامية المعاصرة ، إذا ماتمت عملية « **تحقيق** » تراثها بالاسلوب العلمي الواعي الصحيح ..

وبالنسبة لمكتبة برلين . فقد انتقلت المخطوطات إليها عن طريق المعابر الشرعية وغير الشرعية ، التي استطاعت من خلالها أن تحصل معظم دول أوروبا على أعداد كبيرة منها ـ بحيث شكلت ركناً هاماً في مكتباتها وانشئت لها معاهد الدراسات الشرقية ـ ومن هذه المعابر : القنوات الدبلوماسية سواء بطريق الإهداء أو الشراء .. وعلى سبيل المثال ، فقد بذل **ملك بروسيا ـ صاحب مكتبة برلين في بداية تكوينها ـ [فردريك ويليام ـ ١٦٢٠ ـ ١٦٨٨م] جهوداً كبيرة من أجل الحصول على المخطوطات الإسلامية والعربية ، فارسل لهذا الغرض اثنين من معاونيه ـ من المتخصصين في الدراسات الشرقية ـ إلى الشرق ، هما « ريتشارد ليبسيوس » و « هنريس بترمان » لجمع مايمكن جمعه منها ...**

وبمرور الزمن : كان للعلاقات الخاصة بين بروسيا والدولة العثمانية ، وللتحالف التاريخي بين المانيا وتركيا ، خلال حربين عالميتين ، أثر واضح في تسهيل عملية انتقال المخطوطات العربية والتركية والفارسية إلى مكتبة برلين ..

ونستطيع أن نقول : ـ بصورة عامة ـ أن **عمليات الاتجار المشبوهة ، التي اجرتها أوروبا مع بلدان المشرق والمغرب الإسلامي كان لها دورها في تسرب كميات كبيرة من المخطوطات ، حيث حرص التجار الغربيون على نقل ما استطاعوا نقله منها باعتبارها مواد علمية وأثرية ذات قيمة** . وفي بعض الأحيان على سبيل الذكرى من هذه البلدان .. فاستطاعت « **شركة الهند الشرقية** » ـ على سبيل المثال ـ التي اسستها بريطانيا لإدارة شؤون



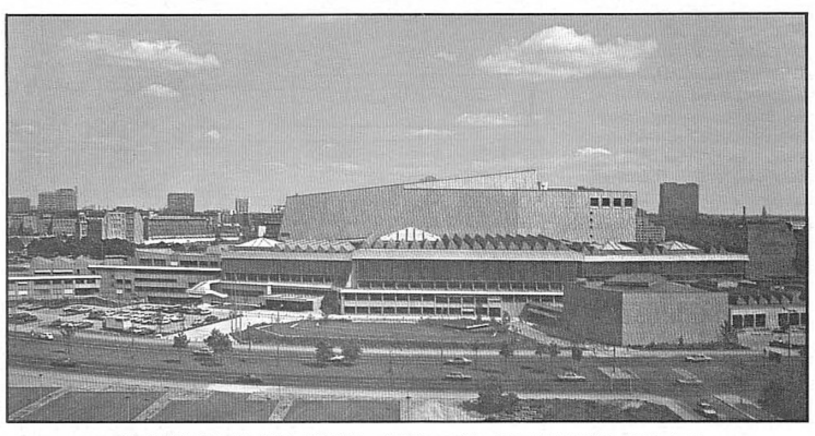
■ مسؤول قسم المخطوطات بمكتبة برلين : متخصص في تاريخ الجزائر ، درس اللغة العربية في الجامعة الألمانية الشمالية ويتحدث بها بصعوبة ، ويعمل بالمكتبة منذ اثنتي عشرة سنة ■



■ قاعة المطالعة الرئيسة في مكتبة برلين ـ وبجوارها يوجد قسم الفهارس الذي يضم معلومات عن حوالي ثلاثة ملايين ونصف مليون كتاب ، وثلاثين ألف مخطوطة ■

■■ تتصل عملية توزع نسبة كبيرة من حوالي ثلاثة ملايين مخطوطة عربية وإسلامية في دول العالم الغربي بجذور الصراع الحضاري ـ الذي لايزال دائراً ـ بين الأمة الإسلامية والغرب ، حيث يسعى بإصرار إلى سلب هذه الأمة مقومات نهضتها .. وهذه المقومات تكمن في تحقيق التواصل الحضاري والثقافي للشخصية المسلمة ، منذ نشأة العقيدة الإسلامية وتفاعل حياته بها .. إلى عصرنا الحاضر ■■

الاقتناء.. إلى النشر



■ مبنى مكتبة برلين في مقرها الجديد بالقسم الغربي من المدينة .. بلغت تكاليف انشائه مائتي مليون مارك الماني ■

مستعمراتها أن تنهب كنوزا نادرة من موروثات المسلمين ، فكانت تطلب إلى رجالها ضرورة العودة إلى بريطانيا بمخطوطات وقطع اثرية كدليل على نجاحهم في مهماتهم ..

المعرفة تمنح القوة

وبانتقال المخطوطات من البلاد الإسلامية إلى مكتبات أوروبا ومراكز ومعاهد الدراسات الاستشراقية بجميع مدنها تقريباً **لوحظ زيادة السيطرة الغربية على بلاد المسلمين على ضوء ما حصل عليه الغرب من معلومات وأفكار عن الشخصية الإسلامية** ، فالمعرفة ـ كما يقولون ـ تمنح القوة ؛ ولعل هذا مايوضح أبعاد العلاقة الرسمية الوثيقة بين الاستشراق والاستعمار ، فمن المستشرقين من عمل مستشاراً لوزارة المستعمرات في بلده مثل المستشرق « **دي ساسي** » في فرنسا ، والمستشرق « **ماسينون** » الذي كان مستشاراً لإدارة المستعمرات الفرنسية في الشؤون الإسلامية ، ولذلك فلا غرابة أن تحظى المخطوطات الإسلامية منهم بالحفظ والعناية وعمليات التصنيف والفهرسة العلمية ...

مكتبة برلين

ومكتبة برلين . تعتبر إحدى المكتبات الأوروبية الهامة التي ساعدت الغرب كثيراً في دراسة قضايا الفكر والعلم والثقافة عند المسلمين ، وأفادت بذلك اجيالاً من المستشرقين .. **وهي تأتي في المرتبة الخامسة بين مكتبات العالم** ـ من حيث أهميتها للباحثين والذين يشتغلون بتحقيق التراث . **بعد المكتبة الظاهرية بدمشق ، ومكتبات استانبول بتركيا ومكتبة جامعة بريستون بأمريكا ومكتبات القاهرة والاسكندرية ..**

وخلال زيارتنا للمكتبة ـ في مبناها الجديد بالقسم الغربي من مدينة برلين **(عاصمة المانيا منذ ١٨٧١)** الذي تكّلف مائتي مليون مارك الماني ـ حيث كانت المكتبة قبل ذلك تشغل عدة مبان قديمة مؤقتة ـ التقينا بمسؤول قسم المخطوطات والدراسات الشرقية (متخصص في تاريخ الجزائر ، ودرس اللغة العربية في الجامعة الالمانية الشمالية ويتحدث بها بصعوبة ، ويعمل بالمكتبة منذ اثنتي عشرة سنة) ..

وقد حدثنا حول عدد المخطوطات الموجودة بالمكتبة ، ونوعيتها والطابع المميز لها ، وطريقة حفظها وفهرستها .. يقول :

● **يوجد في مكتبة برلين حوالي ثلاثة ملايين ونصف مليون كتاب ، أما المخطوطات فيبلغ عددها ثلاثون الفاً ، منها تسعة آلاف مخطوطة عربية ، والباقي مخطوطات تركية وفارسية وهندية وصينية** .. وهي جميعاً مدونة في فهرس خاص بذلك ، وأيضاً مدونة ضمن فهارس مختلفة عن المخطوطات العربية في المانيا .. منها :

فهارس المخطوطات

ـ فهرس مخطوطات جميعة المستشرقين الألمان في « Halle Saale » الذي نشره

المخطوط الإسلامي في خزائن مكتبة برلين

من الاقتناء.. إلى النشر

هانس فير Hans Wehr في عام ١٩٤٠

ــ **وفهرس مخطوطات السمياء الذي وضعه A.siggel ، ونشره مجمع العلوم في برلين** ، كمساهمة في الفهرس العام لمخطوطات الكيمياء ، الذي ينشر تحت رعاية اتحاد المجامع الدولي في بروكسل ، وقد صدر من هذا الفهرس ثلاثة أجزاء :

□ **الأول** : (برلين ١٩٤٩) ويتضمن مخطوطات مكتبة برلين ،

□ **والثاني** : (برلين ١٩٥٠) ويشمل مخطوطات مكتبة جوتا .

□ **والثالث** : (برلين ١٩٥٦) عن مخطوطات مكتبات درسدن Dresdne وميونيخ Munchen .

■ **وهل لاتزال توجد مخطوطات غير مفهرسة من بين ما تحصل عليه منها مكتبات المانيا حديثاً ؟**

ــ في عام ١٩٥٥ ، تقدم أحد المتخصصين من ذوي الاهتمام هو الدكتور هـ . رومر باقتراح باحصاء وفهرسة جميع المخطوطات الشرقية الموجودة في مكتبات المانيا ، التي دخلت المكتبات بعد ظهور فهارسها ، وقد قبلت الجهات المعنية هذا الاقتراح وبديء بتنفيذه ، وقد تبين ـ نتيجة ملاحظات أولية ـ أن هناك مايقرب من ١٤ الف مخطوط غير مفهرس ـ في المانيا بشطريها ، وهذه المخطوطات الموزعة في عدد كبير من المكتبات ـ قد جرى تصنيفها حسب لغاتها ، وعُهد إلى علماء مختصين بوضع فهارسها ، حسب اختصاصهم ، إما بأنفسهم وإما بالاستعانة بالخبراء ، ويدير هذا العمل **الدكتور otto spies** الاستاذ بجامعة بون ورودلف سلهايم **R. sellheim** من جامعة فرانكفورت ، بمساعدة الدكتور **ايفالد فاجنر Evald Wagner** من جامعة ميتز Mainz .

المخطوطات العربية

ويضيف مسؤول قسم المخطوطات الشرقية بجامعة برلين :

والمخطوطات العربية ـ بصفة عامة ـ عبارة عن مصاحف ، ومدونات في علم التفسير وعلم الحديث وعلم الكلام ، وفي التصوف ، وفي الشعر والأدب ، وعلوم اللغة ، والنحو والصرف ، وفي التاريخ والسير الشعبية ... ونسبيا ، فإن عدد المخطوطات في الأدب والشعر كثيرة ؛ والسبب في ذلك ان الرجال الذين كانوا يجمعون المخطوطات ـ في القرن الماضي ـ إما إنهم كانوا لايجدون غيرها او انهم كانوا يحصلون عليها بسهولة ..

■ **إلى أي القرون يعود تاريخ مخطوطات المصاحف الموجودة بالمكتبة ؟**

ــ أوراق المصاحف المخطوطة الموجودة بالمكتبة تكوّن عشرين نسخة ، وهي تعود إلى عدة قرون ؛ القرن السادس والسابع والتاسع والعاشر الميلادي ..

■ **وعن رحلة المخطوطات إلى مكتبة برلين .. يقول رئيس القسم :**

ــ يعود تاريخ حصولنا على معظم هذه المخطوطات إلى القرن التاسع عشر الميلادي ، وقد ساهمت في ذلك العلاقات والاتصالات التي كانت قائمة بين بروسيا والعثمانيين ، خاصة فيما يتعلق بالمخطوطات التركية والعربية والفارسية ، حيث كان ملك بروسيا قد كلّف القنصل البروسي في دمشق بالبحث عن المخطوطات الهامة وجمعها وإحضارها ، وتوجد الآن بالمكتبة ستون مخطوطة نتيجة جهوده الناجحة ..

وتعتبر المصادر الدبلوماسية هذه احدى الوسائل التي تم تزويد المكتبة بالمخطوطات عن طريقها ، كما كانت الرحلات والبعثات المنظمة من الوسائل الهامة في هذا المجال ، **فقد قام الرحالة « إدوارد بلازر » بتنظيم بعثة إلى اليمن ، ومن هناك اشترى ٢٥٠ مخطوطة عربية ، أحضرها معه إلى بروسيا ثم انتقلت إلى مكتبة برلين ، كما قام « شبرنجر » ـ الذي كان يعمل**

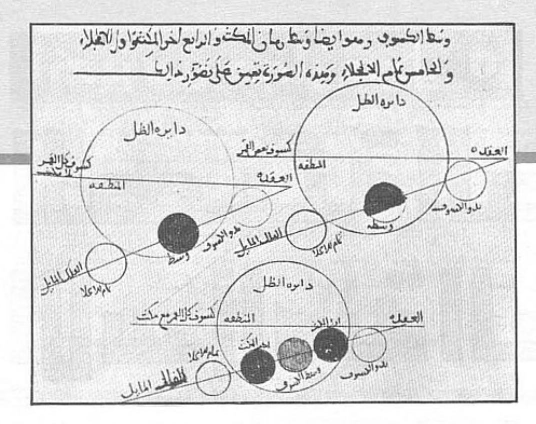
■ يتم حفظ المخطوطات في اماكن مهيأة ، كما يتم فحصها بصفة دورية ، ومعالجتها في معملين لترميم المخطوطات ، واحد في ميونيخ والآخر في برلين ، اقيما في الخمسينيات ■



■ ملك بروسيا ـ فريدريك ويليام (١٦٢٠ ـ ١٦٨٨) الذي تكونت نواة مكتبة برلين في قصره ، وقام بتزويدها بالمخطوطات العربية الإسلامية ■



■ غلاف لمصحف مخطوط .. يجري تقدير تاريخ كتابته بدراسة نوع الورق وشكل الزخارف وأسلوب الخط ■

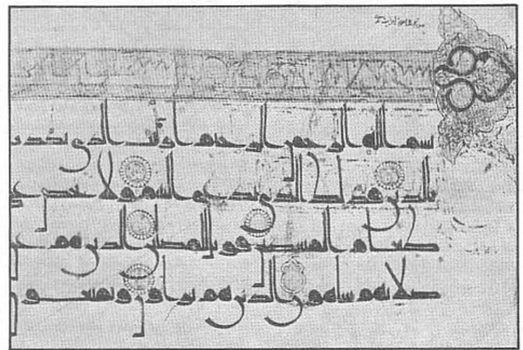


■ مخطوطة عربية من مقتنيات مكتبة برلين (٢١٫٧٥ سم ×١٤ سم) تتضمن معلومات لتدريس علم الفلك وهندسة المثلثات والحساب (٦٣٥هـ/١٢٣٨م) ■

في شركة الهند الشرقية ـ بجمع عدد كبير من المخطوطات بلغ الفي مخطوطة .. ثم كانت بعثة « لانت بيرج » ـ في أواخر القرن الماضي ـ التي كانت تهتم بقضايا الحرف اليدوية واللغات المحلية العامية في جنوب شبه الجزيرة العربية ـ وقد جمعت هذه البعثة خلال فترة عملها عدداً كبيراً من المخطوطات ..

■ على ضوء دراستكم وخبرتكم في مجال العمل بمكتبة برلين لاكثر من عشر سنوات ، كيف ترون أهمية المخطوطات الموجودة بالمكتبة بالنسبة لتطور دراسة الشؤون العربية والإسلامية في المانيا بصفة خاصة وفي أوروبا بصفة عامة ؟

ـ لقد كانت المخطوطات التي حصلت عليها مكتبة برلين ـ على مدى أكثر من قرن من الزمان ـ سبباً في تطور ونمو الدراسات العربية في أوروبا .. وعلى سبيل المثال ، فإن المستشرق الشهير « كارل بروكلمان » ـ الذي سجل تاريخ الآداب والعلوم عند العرب في خمسة مجلدات كان قد بدأ عمله هنا في مكتبة برلين ، وعكف بها على رصد معظم المؤلفات التي ضمنها كتابه « تاريخ الأدب العربي » من خلال ما أتاحته له المخطوطات الموجودة بها ..



■ من المخطوطات القرآنية التي تقتنيها مكتبة برلين ـ صفحة من سورة « الماعون » ـ بالخط الكوفي ضمن مجموعة تضم خمس صفحات مقاس ٢٥×٣٧ سم ، مكتوبة على الجلد ■

كيف يمكن الاستفادة من المخطـوطات ؟

■ وكيف يستفيد الطلاب الدارسون بمعاهد الدراسات الشرقية بالجامعات الألمانية من المخطوطات ؟

ـ يوجد في جامعة برلين ـ على سبيل المثال ـ معهدان لدراسة اللغات السامية ومعهد للدراسات العربية والإسلامية ، ويستفيد الدارسون بها من المخطوطات بصورة مباشرة ، ولكن تأتينا أيضاً طلبات كثيرة للحصول على صور مخطوطات معينة من الباحثين والدارسين المتخصصين بالبلاد العربية .. وعندما تأتينا هذه الطلبات نقوم بتصوير الصفحات المخطوطة المطلوبة ، وتقوم إدارة المكتبة بارسالها خلال شهر أو شهرين ..

نوعية المخطوطات التي اختيرت للنشر

وحول مجالات الاستفادة من المخطوطات العربية والإسلامية الموجودة في مكتبات أوروبا وفي مراكز الدراسات الشرقية بجامعاتها ، قد يكون من المفيد الاشارة إلى مجال النشر ، ذلك أن مزيداً من الشك يشيع حوله بالنظر إلى نوعية المخطوطات التي اختيرت للنشر من بين موروثات العقل الإسلامي ، وبصفة عامة ، فإن نسبة ما قام المستشرقون بنشره من المخطوطات لم يتعد ٢٠٪ اي حوالي ٩٥٠ كتاباً على مدى عشرين عاماً (بدأ نشاط المستشرقين الألمان في النشر بعد الحرب العالمية الثانية) ، ويرى الباحثون أنها من نوعيات معينة تتناول بصورة أساسية الفكر الأخلاقي والمذاهب الباطنية التي لا تقوم إلا في عصور الانحطاط الحضاري وضعف المسلمين :

ـ أشهر السلاسل التي تصدر الآن هي « المكتبة الإسلامية » التي أسسها هلموت ريتر H.ritter

ـ في عام ١٩٥٣ ، نشر رودلف شتروتمان R.strothmann رسالتين عن النصيرية ، الأولى مجهولة العنوان والمؤلف ، والثانية رسالة للشيخ محمود بأمرة الحسين النصيري .

ـ وكان شتروتمان نفسه قد نشر بين عامي ١٩٤٤ ـ ١٩٥٥ ـ في منشورات مجمع العلوم في جوتنجن ـ كتاب « مزاج التسنيم » وهو عبارة عن تفسير « اسماعيلي » للقرآن ..

ـ ونشر أيضاً (١٩٤٦م) في مجلة « الإسلام Der islam » المجلد ٢٧ ـ كتاب « سبيل الارواح ودليل السرور والافراح إلى خالق الاصباح » المعروف بمجموع الأعيان ، لابي سعيد ميمون بن القاسم النصيري ..